﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: 204- 207]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الحَجّ من العبادات التي تكْشفُ عن خَبايا القلوب:

المناسبة بين أثر الحجّ في التّطهيرِ ووجودِ المنافقِ الخَطير، والمُخلِص البَصيرِ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآياتِ السّابقةِ عبادةَ الحجّ التي تطهّرُ القلوبَ، وتغفرُ الذّنوبَ، وذكَرَ أصنافَ النّاسِ في أدْعيتِهم التي تكْشفُ عن خبايا قلوبهم، وأنّ منهم من يطلبُ الدّنيا، ولا غايةَ له وراءها، ومنهم مَن يطلبُ حسنةَ الدّنيا والآخرةِ والوقايةَ من النّار، أتى هنا بذكْر صنْفَين آخَرين؛ أوّلُهما منافقٌ حلوُ المنطق مُظهرٌ للودّ، يخالفُ ظاهرُه باطنَه، يَبذُلُ دينَه لِطَلَب الدّنيا، وثانيهما مَن يقصدُ رضا اللّه تعالى، ويبذُلُ نفسَه ومالَه ودنياه في سبيلِ ذلك، ولمّا كان ذكرُ الحالتين بعد ذكر الحشر في الآيات ربّما أوهم أن يكون القول أو الإعجاب، واقعاً في حالة الحشر، اقتَضَتْ دقّةُ السّياق تقييدَه بالحياة الدّنيا، فهو فيها لا يزداد إلّا تحسيناً لقوله، وتقبيحاً لما يخفى من فعله، وأمّا في الآخرة فسوفَ تُجلَى الضّمائر وتُبلَى السّرائرُ، وحينها تنكشفُ الخبيئةُ، ويظهرُ كلامُ المنافقِ على حقيقتِهِ غير حَسَنٍ ولا مُعجب وشتّانَ بين الحالين[1].

(1) الفيّومي، المصباح المنير: 2/695، وعبّاس حسن، النّحو الوافي: 1/137- 138، وفاضل السّامرّائي، معاني النّحو: 1/66، وفاضل السّامرّائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، : (كتاب بترقيم الشاملة آليا).

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

العَجَبُ: انْفِعالٌ نَفْسيّ عِنْدَ أَمْرٍ يخفى سَبَبُهُ

1) ﴿يُعۡجِبُكَ﴾: منَ الإعْجَاب إيجادُ العَجَبِ في النَّفْسِ، والهَمْزَةُ فيهِ للتَّعَدّي، والعَجَبُ: انْفِعالٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ عِنْدَ مُشاهَدَةِ أَمْرٍ غَيْرِ مَألوفٍ خَفِيَ سَبَبُهُ، ولَمّا كانَ شَأْنُ ما يَخْفى سَبَبُهُ أَنْ تَرْغَبَ فيهِ النَّفْسُ، صارَ العجَبُ مستلزمًا للاستحسان فَيُقالُ: أَعْجَبَني الشَّيْءُ بِمَعْنى أَوْجَبَ لي اسْتِحْسانَهُ، فيُقالُ في الاسْتِحْسانِ: أَعْجَبَني كَذا، وفي الإنْكارِ: عَجِبْتُ مِنْ كَذا، ومعنى قَوْلِه: ﴿يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ أَيْ يَحْسُنُ عِنْدَكَ قَوْلُهُ[1].

الألدّ الخصِام يماحِكُ في الخصومة، ويشتدّ في المِراء:

2) ﴿أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾: معنى اللّفظين مرتبط بوجودهما معا، الأَلَدُّ: الخصيمُ الشّديدُ التّأبّي، وجمعُه: لُدٌّ، وأصلُ الألدّ: الشّديدُ اللَّدَد، أي: صفحةُ العُنُق، وفلانٌ يَتَلَدَّدُ، أي: يتلفّت، أو مُشْتَقٌّ من لديدَي الإنسانِ وهما جانبا الفَم، لأنّ المخاصمَ لك كلّما أخذْتَ في جانبٍ أخذَ في جانب آخَرَ من الجِدال، فالأَلَدُّ: الخَصِمُ الجَدِلُ الشّحيحُ الّذي لا يَرجِعُ إلى الحقّ مهما بان له بُطلانُ رأيه[2].

ولفظ ﴿ٱلۡخِصَامِ﴾: والخَصْمُ مصدرُ خَصَمْتُهُ، أي: نازَعْته خَصْمًا، يُقال: خاصمْتُه وخَصَمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا، و﴿ٱلۡخِصَامِ﴾ مصدرٌ كالمخاصَمَةِ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]، ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ ١٨﴾ [الزّخرف: 18]، ثمّ سُمّي المُخاصِمُ خَصمًا، وأصلُ المُخاصَمَة: أن يتعلّقَ كلُّ واحدٍ بخُصْم الآخَر، أي جانبِه، وأن يَجْذِبَ كلُّ واحدٍ خُصْمَ الجُوالِقِ مِنْ جانب، والجمعُ خُصومٌ وأخصام. والخصومَةُ: المنازَعَةُ. والخَصيمُ: الكثيرُ المخاصَمَة، قال: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾ [النّحل: 4]، والخَصِمُ: المختَصُّ بالخُصومة، قال: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾ [الزّخرف: 58][3].

(1) الرّاغب، المفردات: (عجب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/266، والخازن، لباب التّأويل: 1/136.
(2) الرّاغب، المفردات: (لدد)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (لدد)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/279، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لدد).
(3) الرّاغب، المفردات: (خصم)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خصم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خصم).

الحَرْثُ هو الزّرعُ سـمّـي بـذلـك لمجاوَرته الأرضَ المحروثةَ

3) ﴿ٱلْحَرْثَ﴾: مَصْدَرُ حَرَثَ يَحْرُثُ، الحرْث: الإثارةُ والتّفتيشُ. ومنه حرْثُ الأرضِ، وهو إثارتُها وتطْييبُها وشَقُّها لِيُبْذَرَ فيها الحَبُّ، ويُطْلَقُ عَلى المحروثِ وهو الأرضُ، ويسمّى الزّرعُ حرثًا للمجاوَرَة والتّناسُبِ[1]، و"الحَرْث في اللّغة شقّ الأرض للزّراعة، ويسمّى الزّرع حرثًا للمجاورة والتّناسب، ويدخل سائر الشّجر والغراسات في ذلك، حملًا على الزّرع"[2].

النّسل أولاد الإناث ونتاجُها

4) ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾: ما خَرَجَ مِنْ كُلِّ أُنْثى مِنْ وَلَدٍ، وأَصْلُهُ الخُروجُ والسُّقوطُ، وهو مصدرُ نَسَلَ ينسُل أي: خَرَجَ بسرعةٍ، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51]، ومنه: نَسَلَ وَبَرُ البعيرِ، ونَسَلَ ريشُ الطّائرِ أي: خَرَجَ وتطايَرَ، وقيل: النّسلُ الخروجُ مُتتابعًا، ومنه: نُسالُ الطّائر: ما تتابعَ سقوطُهُ من ريشِهِ، والنُّسالة للسّاقط منه، وسمّي الولدُ نسلًا لِخُروجِهِ مِنْ ظَهْرِ الأَبِ، وسُقوطِهِ مِنْ بَطْنِ الأُمِّ بِسُرْعَةٍ[3].

5) ﴿ٱلْفَسَادَ﴾: خروجُ الشّيءِ عن حالِ استقامتِه وكونِه مُنْتفَعًا به، وهذا يشملَ العبَثَ بالأجهزةِ والمُعَدَّات حتّى تتعطّلَ، ونقيضُه الصّلاحُ، والفسادُ في الأرضِ هَيْجُ الحروبِ والفِتَن؛ لأنّ في ذلك فسادَ ما في الأرضِ، وانتفاءَ الاستقامةِ عن أحوالِ النّاسِ والزّرعِ والمنافعِ الدّينيّة والدّنيويّة، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، والإفسادُ يعمُّ إهلاكَ الحرثِ والنّسلِ وغيرِه، فيكونُ في الأعيان والمعاني، ويُستعمَلُ في النّفْس والبَدَن[4] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾: "معناه لا يحبّ أهلَ الفسادِ، وقال بعضُهم: لا يمدحُ الفسادَ، ولا يثني

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/280، والرّاغب، المفردات: (حرث)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/402، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حرث).
(2) ابن عطيّة: المحرّر الوجيز: 1/280.
(3) الرّاغب، المفردات: (نسل)، وتفسير الرّاغب: 1/428، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/353، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/18، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/316.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).

عليه، وقيل إنّه لا يحبّ كونه دينًا وشرعًا، ويحتمل: لا يحبّ العمل بالفساد"[1].

العزيزُ يَغلبُ ولا يُغلَب، ويَقهرُ ولا يُقهَر

6) ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾: "العزّةُ في اللّغةِ المنفعةُ والغلبةُ كما يقال: من عزَّ بزَّ، أي من غلبَ سلبَ، ويقال: عزَّ الشّيءُ إذا اشتدّ وجوده[2]، والعِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسانِ من أن يُغلَب، ولفظُها يَدُلُّ عَلى شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِنْ غَلَبَةٍ وقَهْرٍ، والعزيزُ: الغالبُ الممتنعُ على مَن يريدُه بالقهر والغلَبة، والباري تعالى أغلبُ الغالِبين فهو يَقهرُ ولا يُقهَر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: 26]، وقد تُستعارُ العِزَّةُ للحميّة والأنَفَة المذمومَة، وذلك في قوله: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[3].

جَهَنّم اسمٌ للنّار بعيدةُ القَعْر، عميقةُ القرار

7) ﴿جَهَنَّمُ﴾: اسمُ علمٍ للنّار، يقالُ: بئرٌ جَهَنّم، وجَهَنّام (بتثليث الجيم): بعيدةُ القَعْر، ومِنه اشتقاقُها، والمشهورُ عند النّحاة أنّها عربيّةٌ، وأنّ منْعَها من الصّرفِ للعَلَميّة والتّأنيث، ووزنُها فعنَّل، واختُلف في نونها بين الزّيادة والأصالة، وقيل: هي اسمٌ لجميعِ نارِ الطّبقاتِ السّبْعِ، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: 43 - 44][4]، ومعنى الآية: "فحسبُهُ جهنّمُ، كافيه الجَحيمُ، جزاءً له وعذابًا، يقال: حسبُك كذا أي: كفاك[5].

المهادُ المُعَدّ في جهنّم للمفسدين يكون لهم جزاءً وفاقًا

8) ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: (مَهَدَ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ لِلشَّيْءِ، ومِنْهُ مَهْدُ الصَّبِيِّ: موضعُه الذي يُهَيَّأُ له ويوَطَّأ لينامَ فيه، ومَهَّدْتُ الأَمْرَ: وَطَّأْتُهُ، والمِهادُ: الوِطاءُ مِنْ كلّ شَيْءٍ، فقيل لكلّ وطيءٍ مهدٌ، والمِهادُ جُعِل تارةً جمعًا للمَهْد، وتارةً مُفرَدًا بمعنى الفِراش، فالمهادُ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/266.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزّ)، والرّاغب، المفردات: (عزّ)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عزز).
(4) الرّاغب، المفردات: (جهنم)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/317، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جهن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنم).
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/311.

كالفراشِ، والمهْدُ كالفَرْش، وزنًا ومعنًى، وجَعْلُ جهنّمَ مِهادًا لهم تهَكُّمًا بهم، أي: ولَبِئسَ الفراشُ الذي يستَقِرُّ علَيه بسَبَبِ غُرورِه[1] "، وقيل لجهنّم (مهاد) على وجهين: أحدهما: أن يكون تقديره: بئس موضعُ المهاد، وقيل: لأنّها لهم بدلُ المهاد سمّيت باسمه، كما جاء: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21][2].

لفظ ﴿يَشْرِى﴾ من الأضداد، والشّراءُ والبَيعُ متلازمان عادةً:

9) ﴿يَشْرِى﴾: الشَّرْي: من الأضداد، يُقال: شَرى، إذا باع. وشَرى: إذا اشْترى، قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] قيل: معناهُ باعوهُ؛ على أنّ الضّميرَ المرفوعَ لإخوةِ يوسفَ، وقيل: هو على بابِه بمعنى اشتروه؛ على أنّ الضّميرَ للسَّيّارة، وقال بعضُهم: الشّراءُ والبَيعُ متلازمان؛ فالمشْتري دافعُ الثَّمَنِ وآخذُ المُثْمَنِ؛ هذا إذا كانت المبايَعَةُ والمشاراةُ بناضٍّ وسلعة، فأمّا إذا كانت بَيْعَ سلعةٍ بسلعةٍ، صحّ أن يُتَصوّرَ كلٌّ واحدٍ منهما في موضع الآخر، إلّا أنّ شريتُ بمعنى بِعْتُ أكثر، وابتَعتُ بمعنى اشتريتُ أكثر، والأصلُ في هذا المماثلةُ، وقد جاءَ معنى الشّراءِ المشهورُ، للمماثلةِ بين المشترى وثمنِه، في القيمة. ومعنى قوله تعالى: ﴿يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ أي: يبيعُها، ومعنى بيع النّفس ههنا: بذلُها لأوامرِ اللّه وما يرضاه، وكلُّ ما جاء في القرآن الكريم من الفعل (شرى يشري)، فالمرادُ به البَيعُ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هذه الآياتُ تذكرُ صِنفين من النّاس، بعد أن ذكرتِ الآياتُ السّابقة صِنفين منهم، فالصِّنف الأول هنا: هو ما يسمَّى بأهل النّفاق الّذين يُظهِرون الإسلام ويُبْطِنون الكفرَ؛ وجاء من أوصافِ هذا الصّنفِ المنافقِ: أنّه حلوُ اللّسان، يُعجِبُ منطقُه السّامعين، وأنّه يؤكّد كلامه بالأيْمان الكاذبة، وفي هذا غاية الجرأة على اللّه، وأنّه فاجرٌ مخاصمٌ لدودٌ في خصومَته للإسلامِ والمسلمين، وأنّه مُفْسِد في الأرض، يُعطّلُ الحياةَ، ويُهلكُ الحرْثَ والنّسلَ، وإذا نُصحَ يَأْنَفُ ويتكبّر، ولا يقبلُ النّصيحةَ، فهذا حسبُه أن تكون جهنّمُ له فِراشًا ومِهادًا ومَأوى، وهناك صنفٌ آخَر: هو صنفُ الأخيارِ الصّالحين المصلِحين من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد)، والراغب، تفسير الرّاغب: 1/429، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مهد).
(2) أبو بكر بن فورك، تفسير ابن فورك، من أول سورة المؤمنون إلى آخر سورة السّجدة: 2/297.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (شرى)، والرّاغب، المفردات: (شرى)، والواحديّ، الوسيط: 1/312، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (شرو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرى).

الّذين يَبيعون أنفسَهم لله، طالبين رِضاه؛ فيَفْدي دينَ الله والحقَّ بنفسِه ومالِه، وكلِّ ما يملكُ، حتّى وإن تعَرّض للأذى أو التّلف، أو الاستشهاد[1]، والآيات تخاطِبُ النّبيَّ ﷺ ومَن يتَأتّى خطابُه، في بيان هذا الصّنف من المنافقين الّذين يُظهرون المودّةَ والموافقةَ، وإذا تولَّوا أفسَدوا في الأرض، فكانتْ فِعالُهم مخالفةً لأقوالهم، وقابَلَ هذا بالصّنفِ الآخَرِ الّذي يَقْصِدُ وجه اللَّهِ ويَبيعُ نَفْسَه ودنياه في طَلَب عفوه ورضاه.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ الجملِ على الجملِ، وأثرها في تقسيم النَّاس:

تنوّعُ أحوالِ النّاسِ بين منافقٍ لئيمٍ ومُخلصٍ يبتغي مرضاةَ الرّؤوفِ الرّحيمِ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مفتتَحةٌ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، الواو عاطفة على قوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 200]؛ "لِأَنَّهُ ذَكَرَ هُنَالِكَ حَالَ الْمُشْرِكِينَ الصُّرَحَاءَ الَّذِينَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَقَابَلَ ذِكْرَهُمْ بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَانْتَقَلَ هُنَا إِلَى حَالِ فَرِيقٍ آخَرِينَ مِمَّنْ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ مُتَظَاهِرُونَ بِأَنَّهُمْ رَاغِبُونَ فِيهَا، مَعَ مُقَابَلَةِ حَالِهِمْ بِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِصِينَ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ الْآخِرَةَ وَالْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ عَلَى الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا، وَهُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [الْبَقَرَة: 207]"[2].

معنى التّبعيضِ في (مِن) في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾:

(مِنْ) للتّبعيض، أي: وبعض النّاس، والتّبعيضُ هنا للتّحقير، وهو مستفادٌ من سياق الذّمّ الوارد فيه.

دلالة اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾:

الألف اللّام في ﴿ٱلنَّاسِ﴾، تكون للعهد إذا حُملت الآيةُ على من نزلت فيهم، أو للجنس إذا كانت عامّةً فيمن نزلت فيهم وفيمن

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/293، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص: 32.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/265.

يشملهم حُكمُها، وهذا شأن الآيات تنزل في خصوص حادثة أو سؤال، ثمّ تكون عامّةً فيما تنطبق علَيه، والعبرةُ بعمومِ اللّفظ لا بخصوص السّبب.

غاية التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ التّشويق إلى الخبر المقولِ:

من عادة القرآن أن يـذمّ الفعلَ لا الفاعلَ، رجاءَ إقــلاعِــهِ عـنه وتفاديه

﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ اسمٌ موصولٌ، ويجوز أن تكون نكرةً موصوفة أي: ومن النّاس ناسٌ، يعجبُك قولُهم[1]، وهي في محلّ رفع مبتدأ، خبرُها الجارّ والمجرور قبلها، وتقديم الخبر للتّشويق إلى استعلام المبتدأ، فقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مُؤْذِنٌ بأنّه ستُساق فيهم قصّة ... و(مَن) مِنَ الأَسْماءِ الموصولة الّتي لَفْظُها مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ دائمًا، وتَنْطَلِقُ عَلَيه فُروعُ المُفْرَدِ والمُذَكَّرِ، إذا كانَ مَعْناها كَذَلِكَ؛ فَتارَةً يُراعى اللَّفْظُ، فَيُفْرَدُ ما يَعودُ عَلى (مَنْ) مُذَكَّرًا، وتارَةً يُراعى المَعْنى فَيُحْمَلُ عَلَيه[2]، وقد روعي اللّفظ هنا، فجاءت الضّمائر العائدةُ علَيه بعده بصيغة المفرد.

ويأتي الاسمُ الموصولُ عندما تكونُ صلتُه، هي الّتي علَيها مدارُ الحُكم، كما أنّه يثير في النّفس الشّوقَ إلى معرفةِ الخبر، فصلةُ الموصولِ هنا إعجابُ القولِ لسامعِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ وما عُطف عليه، والغرضُ ذمٌّ من يتّصفُ بذلك، إذ يتّجه الذَّمُّ إلى الفعل دون الفاعل، ليترك لفاعله فرصةَ اجتنابه، ويدعوه إلى تركِه واجتنابه، وجاء بعده قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، ليكونَ في مقابلته، حتّى تكونَ الموازنةُ قويّةً جليّة، تدفع إلى العمل الصّالح ابتغاءَ مرضاة اللّه، وسبب النّزول مدرجٌ في كثير من كتب التّفسير وكتب أسباب النّزول، ومردّه على

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/166، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/88.
(2) أبو حيّان، المصدر السّابق: 1/89.

خلاف إلى قصّة الأَخْنَسِ بْنِ شريقٍ، أو سَرِيَّةِ الرَّجيعِ، وكلاهما مبسوط في مظانّه[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة الفعلِ المضارِعِ:

تصويرُ الإعجابِ في المستقبل

معنى الإعْجابِ هو إيجادُ العَجَبِ في النَّفْسِ، وهو مستلزِم للاستحسان، أَيْ: يَحْسُنُ عِنْدَكَ قَوْلُهُ[2]، وجاء المسنَد إلَيه ضميرًا مقدَّمًا على فاعله استقباحًا لذكْره باسمه، وجاء قولُه تعالى: ﴿يُعْجِبُكَ﴾ ماضيًا في المعنى، مضارعًا في اللَّفظِ للتّصوير والتّحقيق، كأنّه مُشاهَد للعيان، وعلى (العموم)، فهو مستقبل حقيقة[3]، وفي قوله: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ إشارةٌ إلى أنّ له قولًا آخرَ ليس بهذه الصّفة[4]، لكنّه يَحترز من إظهاره أمام المؤمنين، حتّى لا يُفتَضَح أمرُه.

تعدُّدُ تعلُّقِ قولِه: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

إجادةُ اللّسانِ بما يخالفُ الإيمانَ سِمةُ أهلِ النِّفاقِ

اختُلف في تعلُّقِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، بأيِّ شيءٍ؟ فقيل: متعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿قَوْلُهُۥ﴾، أي: يعجبُك ما يقولُه في أمورِ الدّنيا، وأسبابِ المعاشِ؛ لأنّه يطلبُ بادّعاء المحبّة حظَّ الدّنيا، ولا يريدُ به الآخرةَ، ومَن أحبّ شيئًا أحسن القولَ فيه، ومن كانت الدّنيا همَّه أحسن حكايةَ أمورها، حتّى إنّ قوله فيها ليكون عجيبًا مُعجِبًا.

وقيل: متعلِّقٌ بـ﴿يُعْجِبُكَ﴾، فيكون المعنى: يعجبُك كلامهم في الدّنيا، وفي الآخرة سيكونون بحالٍ لا يعجبُك؛ حيث يكون

---

(1) يورد أهل التّفسير أنّ هذه الآية وما بعدها، نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شريقٍ، وكانَ حُلْوَ اللِّسانِ والمَنْظَرِ، يُجالِسُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، ويُظْهِرُ حُبَّهُ والإسْلامَ، ويَحْلِفُ عَلى ذَلِكَ، فَكانَ يُدْنِيهِ ولا يَعْلَمُ ما أَضْمَرَ، وكانَ مِنْ ثَقِيفٍ حَلِيفًا لِبَني زُهْرَةَ، فَجَرى بَيْنَهُ وبَيْنَ ثَقِيفٍ شَيْءٌ، فَبَيَّتَهُمْ لَيْلًا وأَحْرَقَ زَرْعَهُمْ، وأَهْلَكَ مَواشِيَهُمْ وقالَ ابْنُ عَبّاسٍ: نزلت في كُفّارِ قُرَيْشٍ، أَرْسَلوا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ: إنّا قَدْ أَسْلَمْنا، فَابْعَثْ إلَيْنا مَنْ يُعَلِّمُنا دينَكَ، وكانَ ذَلِكَ مَكْرًا مِنْهُمْ، فَبَعَثَ إلَيهِمْ خُبَيْبًا، ومرثدًا، وعاصِمَ بْنَ ثابِتٍ، وابْنَ الدّثنة، وغَيْرَهُمْ، وتُسَمّى: سَرِيَّةَ الرَّجيعِ، والرَّجيعُ مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ والمَدينَةِ، فَقُتِلوا جميعًا ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ: أَنَّه حملها على العموم لتشملَ هؤلاء المذكورين، وكُلَّ مُنافِقٍ أَظْهَرَ على لِسانِهِ ما لَيْسَ في قَلْبِهِ، كما جاء عن قَتادَة وغيره في المُنافِقينَ، قالوا: عَنْ سَرِيَّةِ الرَّجيعِ: وَبَخَ هؤلاء ما قعدوا في بُيوتِهِمْ، ولا أَدَّوْا رِسالَةَ صاحِبِهِمْ! ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/279، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/325.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/266.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/248-249، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/302.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/210.

الحكم للظّاهر، ولا يُنْقَبُ عن القلوب والسّرائر، أمّا الآخرةُ فالحَكَمُ فيها علّامُ الغيوب الّذي يعلمُ ما تُخفي الصّدور، فلا سبيلَ للخديعة بالقول.

وهذا الّذي يتّفق مع السّياق؛ إذ إنّ السّياق في بيان الذين يخدعون النّاس في الدّنيا وقلوبُهم مريضةٌ، لا بيان حالِ مَن يُجيدون القول فيها، وإنّ بعض الّذين يجيدون القول في الدّنيا أخيارٌ لا أشرار[1].

دلالةُ القسمِ في قوله تعالَى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾:

عندما تضمحلُّ ثقةُ المرتابِ، يُوثّق أباطيلَه بالأيمان الكِذاب

معنى إشْهادِ اللَّهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أي: حَلفُهُ بِأَنَّ اللَّه يَعْلَمُ إنَّهُ لَصادِقٌ؛ وذلك لما يعتري سامعَه من ريبة في صدق حاله ومقاله، كما قالَ تَعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: 62]، أي يقول حالفًا: اللّه يعلم أنّي أقول حقًّا، اللّه يعلم أنّ ما في قلبي موافِقٌ لما في لساني، وهو يجادل في ذلك ويخاصم، وجاء في قراءة تفسيريّة لأُبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما: (ويَسْتَشْهِدُ اللّه على ما في قلبِه)[2]، ومن ألفاظ القسَم: (اللّه يعلم أنّي فعلت كذا)، أو (اللّه يشهد أنّي قلت كذا)؛ فهذا توكيد بالأيمان معروفٌ في لغة العرب، والحلِفُ على هذا النّحو أوكَدُ وأوثقُ من القسَم الصّريح[3].

معنى الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾:

احتمالُ معنى الحالِ والاستئنافِ والعطفِ

تحتملُ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ أن تكونَ حاليَّةً، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحال، وهذا ممّا استُدرك على قول الجُرجانيّ: "جملةُ الحالِ والفعلُ مضارعٌ مثبَتٌ غيرُ منفيٍّ، لا تكادُ تجيءُ بِالواو"[4]، ولهذا أمثلة أخرى[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/636.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/428، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/279.
(3) أبو زهرة، المصدر السّابق: 2/637.
(4) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/674.
(5) محمّد عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 3/586.

وتحتمل أن تكونَ الواوُ استئنافيّةً، والجملة بعدها مستأنَفة لا محلّ لها، ويجوز أن تكون الواو عاطفة جملة ﴿وَيُشْهِدُ﴾ على جملة ﴿يُعْجِبُكَ﴾[1]، وذلك لاتّحادهما في الخبريّة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الألد:

تصويرُ الخصومة الشَّديدة بصورةٍ حسيَّةٍ مشاهدةٍ

استعير الألدّ في قَوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ للجَدِل الشّديد الخصومة المغالِب فيها، الّذي يلوي الحُجج في كلّ جانب، والألدُّ: هو المائلُ، اللَّديد، أي: المائل صفحة العنق؛ فيشْبه انحرافُه واعوجاجُه المشيَ في لديدَي الوادي[2]، قال الزّجاج: "والمعنى فيه، أنّ اللّه عالم بما يُسِرُّه، فأعلم اللَّه ﷻ النّبيّ ﷺ حقيقةَ أمر هذا المنافق وقال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾، ومعنى خَصمٌ ألدُّ في اللّغة: الشّديد الخصومة والجَدَلِ، واشتقاقه من لَديدَي العُنق، وهما صفحتا العنق، وتأويله، أنّ خصمه في أيّ وجه أخذ - من يمين أو شمال - من أبواب الخصومة غلبه في ذلك"[3].

معنى الصفةِ المشبَّهةِ في لفظِ ﴿أَلَدُّ﴾:

الـلّـددُ مبالغةٌ في الخصومةِ ومغالبةٌ في المحاورَةِ والمناظَرَةِ:

صيغةُ ﴿أَلَدُّ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، ولَيْسَ اسْمَ تَفْضيلٍ، وتَكونُ إضافتُه للخصام على المُبالَغَةِ فَجُعِلَ الخِصامُ أَلَدَّ، أَيْ: نُزِّلَ خِصامُهُ مَنْزِلَةَ شَخْصٍ لَهُ خِصامٌ، فَصارا شَيْئَيْنِ؛ فَصَحَّتِ الإضافَةُ عَلى طَريقَةِ المَجازِ العَقْلِيِّ، كَأَنَّهُ قيلَ: خِصامُهُ شَديدُ الخِصامِ، كَما قالوا: جُنَّ جُنونُهُ وقالوا: جَدَّ جَدُّهُ، أَوْ تكون الإضافَةُ عَلى مَعْنى (في) أَيْ: وهُوَ شَديدُ الخِصامِ في الخِصامِ، أَيْ: في حالِ الخِصامِ، هذا على اعتبارِ الخصامِ مصدرًا، أمّا إن اعتبرنا الخصامَ جمعًا فالإضافَةُ ظاهرة لا إشكالَ فيها، أَيْ: وهو أَلَدُّ النّاسِ المُخاصِمينَ[4].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/423.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/427.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/267.

معنى ﴿ٱلۡخِصَامِ﴾ بين المصدريَّةِ والجمعِ:

صاحبُ الجدلِ يؤثرُ هواه على انتصارِ الحقّ في عُلاه

الخصام: إمّا أن يكون مصدر خاصم أي جادل، أو جمع خَصْم كضَخْم وضِخام؛ والمعنى: أنّ هذا النّوع من النّاس الّذي يحاول أن يخدع النّاس بحُلْو لسانه، ويُضلّهم بقدرة بيانه، فيه طبْعٌ ملازمٌ له، وهو شدّةُ الخصومة والجدلِ، والمغالبةِ البيانيّة، في ميدان المناظرات.

ومَن يكن همَّه الجدلُ، لا يعنيه الحقُّ بمقدار ما يعنيه انتصارُ فكْرِه، وغلَبتُه في ميدان النّزال البيانيّ؛ فيندفع إلى تأييد مذهبه بالحقّ وبالباطل؛ لذلك كان مبغَضًا إلى الله، وقد جاء في الحديث: "إنَّ أَبْغَضَ الرِّجالِ إلى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ"[1].

المعاني الاشتقاقيّةُ للفظِ ﴿تَوَلَّىٰ﴾:

مـــدارُ معنى التَّولِّي على الكِبرِ والإدبار

التّولّي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ يحتملُ أن يكونَ مشتقًّا من أحدِ أمرين:

الأوّل: إمّا أن يكون مُشْتَقًّا مِنَ التَّوْلِيَةِ، وهي الإدْبارُ والانْصِرافُ، أَيْ: وإذا فارَقَكَ سَعى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ، وذلك بعد أن خدع النّاس بحُلو القول، وأقسم بالأيمان المغلّظة الكاذبة، وجادل فيما يدّعيه من حبّه للخير والإصلاح، ومُتَعَلّقُ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ حينئذ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ تَوَلّى عَنْكَ.

الثّاني: وإمّا أن يكون مُشْتَقًّا مِنَ الولايَةِ: يُقالُ وَلِيَ البَلَدَ وتَوَلّاهُ، إذا صارَ والِيًا، أَيْ: إذا تَزَعَّمَ ورَأَسَ النّاسَ سَعى في الأَرْضِ بِالفَسادِ، والآية الكريمة تحتمل الأمرين[2]، ولقوله تعالى: ﴿تَوَلَّىٰ﴾، أربعة أقوال: أحدها: أنّه بمعنى: غضب، والثّاني: أنّه الانصراف عن القول الّذي قاله، والثّالث: أنّه من الولاية، فتقديرُه: إذا صار واليًا، والرّابع: أنه الانصراف بالبدن[3]، وفي كلّ ذلك إدْبارٌ وانْصِرافٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/638 - 640، والحديث أخرجه البخاريّ، حديث رقم: (2457)، ومسلم، حديث رقم: (2668).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/268، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/642.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/171.

بحال المضادّة وعدم التّوافق أو هي تبدّل واستنكاف واستكبار حال تولّي الولاية فينصرف من تواضعه إلى الكبر والصَّلَف والظلم.

سرُّ التَّعبيرِ بالسَّعْيِ دون المشي أو السَّيْر:

يُستعمل السَّعيُ مَجازًا في تذبير الكَيْد، وإرادَةِ الفَساد في الأَرْض

استُعمل السَّعيُ في قوله تعالى: ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ والسَّعْيُ حَقيقَتُهُ المشيُ السّريع، ومنه قيل: السّعي بين الصّفا والمروة[1]، للدّلالة على معنى الإفسادِ في الأرض، أَيْ: ذَهَبَ يَسيرُ في الأَرْض غازيًا ومُغيرًا لِيُفْسِدَ فيها، فَيَدخلُ في هذا ما فَعَلَهُ الأَخْنَسُ بن شريق بِحَرْق الزُّروع وقَتْل المَواشي وفي قوله عزّ ذكره: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، السّعي: هو العمل، لا السّعي على الأقدام، قال الشَّافِعِي رحمه الله تعالى: قال زهير:

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ *** فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا ولَمْ يَأْلُوا[2]

ويُلمح في ﴿سَعَىٰ﴾ التّشبيهُ الضِّمنيّ[3] بتشبيهِ المنافقين في عملهم بعزمٍ وإصرارٍ وحرصٍ بالماشي السّريع، بجامع الوصولِ إلى غاية معيّنة، وهي الإفسادُ في الأرض وتخريبُ نظامها الذي به قوامُ حياة النّاس، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ سَعى مَجازًا في الإرادَةِ والتَّدْبير، أَيْ: دَبَّرَ الكَيْدَ وأَرادَ الفَسادَ في الأَرْض.

بلاغةُ اسْتِعمَالِ حَرْفِيِّ الظَّرفيَّةِ في قَوْلِه: ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾:

سَعْيُ المفسِد لا يقتصِرُ على موضعٍ بعينه، بل يشملُ الأرضَ كلَّها

استعملت الآيةُ حرْفَي الظَّرفيَّةِ للبيانِ بعد الإجمالِ، فقَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تَأْكيدٌ لمَدْلولِ الإفسادِ في الأرض، وتَنْصيص عَلى أَنَّ هَذا السَّعْيَ هو السَّيْرُ في الأَرْضِ لِلْفَسادِ، وهو الغارَةُ والتَّلَصُّصُ لِغَيْرِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، ولِذَلِكَ قالَ بَعْدَهُ: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ فاللّامُ لِلتَّعْليلِ، لِأَنَّ الإفْسادَ مَقْصودٌ لِهَذا السّاعي، وتوحي عبارة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنّ فساده

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/428.

(2) الشّافعيّ، تفسير الشّافعيّ: 1/323.

(3) التّشبيه الضّمني: هو ما لم يُصرّح فيه بأركان التّشبيه على الطّريقة المعلومة، بل يفهم من معنى الكلام، وسِيَاق الحديث، ينظر: أحمد المراغيّ، علوم البلاغة، ص: 234.

استشرى وعمّ الأرض كلّها، ويَكونُ قَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُتَعَلِّقًا بِسَعى لِإفادَةِ أَنَّ سَعْيَهُ في أَمْرٍ مِنْ أُمورِ أَهْلِ أَرْضِكُمْ، وبِذَلِكَ تَكونُ إِعادَةُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ بَيانًا لِإِجْمالِ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مَعَ إِفادَةِ التَّأْكِيدِ[1]، قال الحَرَالِّي: ولما كانت الأرض موضوعة لِلنَّشْءِ منها وفيها، وموضع ظهور عامة الصّور الرّابية اللّازمة الجسميّة، ومحلّ تَنَشُّؤِ صُورة النّفس بالأعمال والأخلاق، وكان الإفساد نقض الصُّور، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾، كان فعلُهم فيها من نحو فعلهم في وضع الضّدّ السَّيِّئِ موضعَ ضدّه الأكمل، والتّقصير بما شأنُه التّكملةُ، فكان إفسادًا لذلك"[2].

نوع العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾:

تـخـصـيـصُ المعطوفِ عليه بـأحـدِ أنـواعِـه لـلـتَّـنـبـيـه على عظمِه

عطَفَ النَّظم الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ على قولِه: ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، وهو من عطف الخاصِّ على العامِّ[3]؛ لأنَّ الإفسادَ في الأرضِ يشملُ إهلاكَ الحرثِ والنَّسلِ، وقد خصَّهما بالذِّكرِ؛ "لأنّهما أعظمُ ما يُحتاج إليه في عمارة الدّنيا، فكان إفسادُهما غايةَ الإفساد"[4]، ولأنّ فيهما جماعَ حاجاتِ بني الإنسانِ، فما من أمرٍ يحتاجُ إلَيه الإنسانُ في مقوِّماتِ جِسْمِه إلّا كان من الحيوان أو من النّبات، وهلاكُهما كنايةٌ عن الخرابِ العامِّ، وضياعِ المصالح[5].

كـنـايـةٌ عـن الخرابِ العامّ، وضياعِ المَصَالِحِ:

المقصودُ بإهلاك الحرثِ والنّسلِ:

الحرثُ: مصدرُ حرثَ يحرُثُ؛ بمعنى أثارَ الأرضَ لإعدادها للزّراعةِ، ثمّ أطلقَ وأريدَ به المحروثُ وهو الأرض نفسُها، ثمّ أطلق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/268 - 269.
(2) الحرالّي، تراث أبي الحسن الحَرَالِّيّ المراكشي في التّفسير، ص: 180.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/250.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/330.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/641.

وأريد به ثمراتُ الحرث، وهو الزّرع الّذي حان حصاده، والثّمرُ الّذي آتى أكلَه؛ والمراد به هنا ذلك[1]، والنّسل في أصله: مصدر نسل ينسل، بمعنى خرج وسقط، ثمّ أطلق على خروج الحيوان من بطن أمّه وولادته، ثمّ أطلق وأريد به ذات الحيوان الوليد[2].

و﴿ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ وإن كانا في الأصلِ مصدَرَيْن، فإنّهما هنا واقعان موقعَ المفعولِ به[3]، وإهلاكُ الحَرْثِ والنَّسْلِ، كِنايَةٌ عَنِ اخْتِلالِ ما بِهِ قِوامُ أَحْوالِ النّاسِ، وكانوا أَهْلَ حَرْثٍ وماشِيَةٍ، فَلَيْسَ المُرادُ خُصوصَ هَذَيْنِ بَلِ المُرادُ ضَياعُ ما بِهِ قِوامُ النّاسِ، وهذا أعمُّ وأشمل، والآيَةُ دالَّةٌ عَلى أَنّ من يتسبّب في مِثْلِ ذَلِك صَريحًا أو كِنايَة، مُسْتَحِقٌّ لِلْعِقابِ في الآخِرَةِ، ولِذَلِكَ عَقَّبَ بِجُمْلَةِ التَّذْييلِ وهي ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ تَحْذيرًا وتَوْبيخًا[4].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾:

بيانُ المقاصدِ الشَّرعيَّةِ في تطبيقِ الحكمةِ الإلهيَّة

مَعْنى نَفْيِ المَحَبَّةِ في قَوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ نَفْيٌ لازمها وهو الرِّضا بِالفَسادِ، والفَسادُ ضِدُّ الصَّلاحِ، ومَعْنى الفَسادِ: إخراجُ الشَّيءِ من حالةٍ محمودةٍ لا لغرض صحيح، أو هو إتْلافُ ما هو نافِعٌ لِلنّاس، نَفْعًا مَحْضًا أَوْ راجِحًا، وقد سَمّى اللّٰهُ إتلافَ الزّرع، وقتلَ المواشي فَسادًا، مع أنّ بعض ذلك الحَرْث والنّسل لِغير المسلمين؛ لِأَنَّ إتْلافَ خَيْراتِ الأَرْضِ رُزْءٌ عَلى النّاسِ كُلِّهِمْ، وفيه تَعْطيلٌ لِما خَلَقَهُ اللّٰهُ في هذا العالَمِ لِحِكْمَةِ صَلاحِ النّاسِ؛ فَإِنَّ الحَكيمَ لا يُحِبُّ تَعْطيلَ ما تَقْتَضيهِ الحِكْمَةُ، وعلى هذا جاء التّحذير بعقوبة فاعله[5]، والجملة اعتراضٌ تذييليّ؛ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، وقد ذيّل اللّٰه سبحانه وتعالى الآية الكريمة، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾، وذلك لأمور عدّة:

أوّلًا: بيان أنّ اللّٰه لا يحبّ ذلك الصّنفَ منَ النّاس الّذي يخدعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/641.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/641.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/353.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/270.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/429، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/270.

النّاسَ ويكذبُ على اللّه، ويجادل ويُماري، ويَضلّ عن بيّنة، ويسعى في الأرض بالفسادِ؛ إذ لا يحبّ اللّه الفسادَ، ولا يحبّ المفسدين، ومن لا يحبّه اللّه فهو بعيد عن رحمته، معَرَّض لنقمته.

ثانيًا: بيان أنّ اللّه سبحانه وتعالى، لا يريد بما فرضَ من عباداتٍ، إلّا مصلحةَ النّاس، ودفعَ الضّرّ عنهم، وأنّ شرع اللّه كلّه، أساسُه إقامةُ المصلحة ودفعُ المضرّة، فما من أمر شرعه اللّه إلّا فيه جلْبُ نفْع، أو دفْعُ ضرَر، وأنّ دفْع الضّرر، مُقدّمٌ على جَلْب النّفْع.

ثالثًا: إشارةُ التّذييلِ إلى أنّ اللّه سبحانه استَخلَف الإنسانَ في هذه الأرض ليَعْمُرها لا ليُفْسدها ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][1].

دلالة البناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

العلماءُ الرَّبّانيُّون يقولون كلمةَ الحقِّ استجابةً لأمرِ الحقِّ

جاءَ قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ مبنيًّا للمفعولِ لِلإبْهام؛ ليصح أن يُسندَ القولُ لكلِّ أحدٍ، ممّن يرى فسادَ المفسدِ ونِفاقه على طريقة العِظة والنّصيحة: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وفي ذلك أمرٌ غيرُ مباشرٍ للعلماءِ العاملين أو يأمروا المفسدين بتقوى اللّه تعالى، بقطعِ النَّظرِ عن امتثالِهم للأمرِ، إذِ القولُ هو استجابةٌ لما يحب اللّه ويرضى، وهو تسجيلٌ على أولئك المفسدين بالفساد أمام المجتمعِ المسلم، ليُعلمَ حالُهم، فتُجتنب مجالسهم.

معنى لامِ التَّبليغِ في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾:

نوعُ اللّام في قولِه: ﴿لَهُ﴾ هي لامُ التَّبْليغِ، وهي الجارّة لاسم السّامع لقَوْلٍ أو ما في مَعْناهُ، نَحْو: قلت لَهُ، وأذنت لَهُ، وفسّرتُ لَهُ[2]، ومقولُ القولِ هو: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، أي: اتّق عقابَ اللّه تعالى، بتركِ ما تباشِرُه من الفساد أو النّفاق، واحذرْ سوءَ مغبَّتِه.

الإضمارُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾:

تنبيهٌ على القولِ الآثمِ بذكرِ علَّتِه

في الكلام حذفٌ، والتّقدير: (إذا قيل له اتّق اللّه، لم يتّقِ، وأخذته الأَنَفة والكبرياءُ بما يوجب الإثم)، لأنّه يرى نفسَه فوق نُصح

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/643.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: ص: 281.

النّاصحين، قال ابن عَرَفة: "الآية لها منطوق ومفهوم، والتّقدير: لم يتّق لأجل ما نالته (من العزّة) بسبب الإثم، واكتفى عن ذلك المفهوم فذكر علّته[1]، وقال الثّعلبيّ: "أي: حملته العزّة وحميّة الجاهليّة على الفعل بالإثم والعزّة والقوّة والمنعة، ويقال: معناه أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ الّذي في قلبه"[2].

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾:

حميّةُ الجاهليّةِ حُمقٌ وانغلاقٌ

استُعير الأخذُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ للحَمْل بعد أن شبّه حالةَ إغراءِ حميّة الجاهليّة، وحملَها إيّاه على الإثم بحالة شخص له حقٌّ على غريمه، فيأخذه به ويُلزمه على أداء حقّه، وهي استعارة تبعيّة واقعةٌ على التّمثيل[3].

استعارةُ العزّةِ للأنفةِ المذمومةِ

وقد استُعيرت العِزّة للحَمِيَّة والأَنَفَة المذمومة في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[4]، فـ(ال) في العزّة للعهد؛ أي: العزّة المعهودة المعروفة عند أهل الجاهليّة الّتي تمنع صاحبَها من قبول النّصيحة[5]، والعِزّ في الأَصْل القُوَّةُ والشِّدَّة والغلَبَة والرِّفْعة والامْتِناع، والعِزَّة: حالةٌ مانعةٌ للإنْسان من أَن يُغلَب، وهي يُمدَح بها تارَة، ويُذَمُّ بها تارَة، كعِزَّة الكُفّار، والعِزَّةُ الّتي للكفّار هي التَّعَزُّز، وفي الحَقيقَة ذُلٌّ لأنّه تشَبُّعٌ بِما لم يُعطَه.

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾:

اجتماعُ معنى المصاحبةِ والتَّعليلِ في حرفِ الباءِ من بلاغةِ الاستعمالِ

حرفُ الباء في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾، إمّا أن يكون بمعنى المصاحبةِ والاقتران، والمعنى على هذا: أَخَذَتْهُمُ العزّة واستولَت

(1) تفسير ابن عرفة: 1/250.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/124.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/318، والاستعارة التّمثيليّة: تركيب استُعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعيّ، بحيث يكون كلٌّ من المشبّه والمشبّه به هيئةً منتزَعة من متعدّد، أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 275.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (عزز).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/271.

علَيهم، مقترنةً بالإثم مصاحبةً له، فهي ليست عزّةً محمودةً، بل كبرياء مبغوضة.

أو يكون للسّببيّة، بمعنى لام التّعليل، ويكون المعنى: أخذتهم العزّةُ بسبب الإثم الّذي استغرق قلوبهم، وأحاطَ بنفوسهم، أي: أنّهم لفرط ما ارتكبوا من آثام، قد أحاطت بهم خطيئاتهم؛ فسدّت مساربَ الهداية إلى قلوبهم، فإذا سمعوا كلمةَ الرّشادِ لم يتقبّلوها، وأنغضوا رؤوسهم، حاسبين أنّ ذلك إهانةٌ لسلطانهم؛ وإصغارٌ لشأنهم، وما هو في حقيقة الأمر إلّا حمايةٌ للسّلطان، وإكبارٌ للأمر، وخصوصًا إذا كان من ناصح أمين[1]، والمعنيانِ صحيحان، فإثمهم يُصاحِبُهم، ويقترنُ بعزّتِهم، وهي عزّةٌ بسببِ الإثمِ المستقرِّ في قلوبِهم.

فنُّ الاحتراسِ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾:

تعيينُ نوعِ العزّةِ بالقيدِ السِّياقيّ

في قوله: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ احتراسٌ، ويسمّى التّكميل[2]، وهو: أن يؤتى في كلام، يوهم خلافَ المقصود، بما يدفعه[3]، ويَرفع عَنْهُ اللَّبْسَ، ويُقَرِّبُهُ لِلْفَهْمِ؛ وذَلِك أَنَّ العِزَّةَ مَحْمودَةٌ ومَذْمومَةٌ، فالمَحْمودَةُ طاعَةُ اللّه، كَما قالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، فَلَمّا قالَ: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾، اتَّضَحَ المَعْنى وتَمَّ، وتَبَيَّنَ أَنَّها العِزَّةُ المَذْمومَةُ المُؤَثِّمُ صاحِبُها[4].

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ﴾:

دور الفـــاء الفـصيحةِ في الإفـصـاحِ عـنِ الشّرط المقدَّر

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ﴾ هي الفاءُ الفصيحةُ؛ لأنّها أفصحت عن شرطٍ مقدَّر؛ أي: إذا كانت هذه حالةُ المُعْرِضِ عن النّصحِ أنَفَة وتكبُّرًا، وأردْتَ بيانَ عاقبتِه، فأقول لك: حسبُه جهنّمُ، وهذا اسْتِعْظامٌ لِما حَلَّ بِهِ مِنَ العَذابِ، كَما تَقولُ لِلرَّجُلِ: كَفاكَ ما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/332، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/644.

(2) وقد سمّى أبوحيّان التّكميل تتميما فقال: " وفي قوله: ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾، نوع من البديع يسمّى التّتميم، وهو إرداف الكلام بكلمة يرفع عنه اللّبس، وتقرّبه للفهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾" البحر المحيط: 2/333.

(3) عبد المتعال الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 2/355.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: -2/332 333.

حَلَّ بِكَ! إذا اسْتَعْظَمْتَ وعَظَّمْتَ عَلَيه ما حَلَّ بِهِ[1]، وحَسْبُهُ جَهَنَّمُ أي: كافيهِ جهنّمُ جزاءً له، والمراد به دارُ العذاب التي أعدَّ اللّه لأعدائه في الآخرة، وجهنّم أُخذت من التّجهّم وهو التّكرُّه، فتَلْقاهُمْ بِوَجْهٍ مُتَجَهِّمٍ عابسٍ، جزاءَ تجهّم وجوههم عندما كان يُقال لأحدهم: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وتَتَجَهَّمُ وُجوهُهُمْ وتَعْبَسُ فيها لِما يُلاقونَ مِنْ أَلَمِ العَذابِ[2].

تقديرُ القسمِ والمخصوصِ بالذّمّ في قولِه: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾:

وعيدُ المتكبّرين بما يُناسِبُ غطرستَهم.

معنى قَوله: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أَيْ: بِئْسَ ما مَهَّدوا لِأَنْفُسِهِمْ، أَوْ بِئْسَ الفِراشُ لَهُم[3]، الّذي يستقرّون عليه بسبب غرورهم وفجورهم، واللّام واقعة في جواب قسَم محذوف، على تقدير: واللّه لبئس المهاد جَهَنَّم، واللّه تَعالى يُقْسِمُ تَأْكِيدًا لِلْوَعيدِ بِأَنَّ الّذي يَرى عِزَّتَهُ مانِعَةً لَهُ عَنِ الإذْعانِ لِلْأَمْرِ بِتَقْوى اللّهِ سَيَكونُ مِهادُهُ ومَأْواهُ النّارُ، وهي بِئْسَ المِهادُ وشَرُّهُ، لا راحَةَ فيها، ولا اطْمِئْنانَ لِأَهْلِها[4]، والمخصوص بالذّمّ محذوف لظهوره وتعيّنه، أي: ولَبِئْسَ المِهادُ جَهَنَّمُ، وحَسَّنَ حَذْفَهُ هنا كونُ ﴿ٱلْمِهَادُ﴾، وقعَ فاصلةً[5].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ المهادِ بدل جهنَّم:

التّهكُّمُ والاستهزاءُ بمَنْ تعزَّزَ بإثمِه

المهاد: جمع مَهْد وهو ما يوطّأُ للنّوم، أو أنّه اسمٌ مفردٌ، سُمِّيَ به الفراشُ المُوَطَّأ لِلنَّوْم؛ وهو موطن الهدوء والرّاحة والمستطاب ممّا يُستَفْرش ويوطأ[6]، والتّعبير عن جهنّم بأنّها جُعِلَتْ لهم بَدَلَ مِهادٍ يَفْترشونه من باب التّهكّم والاستهزاء، بهذا النّوع المغرور المُفسد، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21]؛ لِأَنَّ العُصاةَ يُلْقَوْنَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهم وظهورَهم[7].

(1) المصدر السّابق: 2/333.
(2) الجُرجانيّ، درج الدُّرر: 1/372.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/221.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/201.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 2/356.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 2/356، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/385.
(7) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/429، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/333، والسّمين، المصدر السّابق: 2/356، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.

استكمالُ التَّقسيمِ أركانَه بذكرِ ﴿مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

المُصلِحون هم مـن يَـبـيـعُـون أَنـفـسَـهـم لله تعالى

خُتِمتِ الآيةُ بخيرِ الأصناف المذكورِ في قَوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾، وهو الذي يُهلك نفسَه لاستصلاح النّاس، بعد أن ذكر شرّها وهو الّذي يُهلك النّاس لاستبقاء نفسه، وفيه إشارةٌ إلى عِظم المهمّةِ الملقاةِ على عاتِقِهم، وهي مجاهدةُ الشّرّ والتّغلّبُ علَيه، وذلك يقتضي التّعرّضَ للأذى، وقد يصل إلى القتل، ووجودُ مثلِ هذه الفئة منَ المخلصين بين النّاس، رحمة عامّة للعباد، لا خاصّة بهم، وكثيرًا ما ينتفع النّاس بعمل المصلحين من دونهم، إذ تظهر ثمراتُ إصلاحهم من بعدهم[1].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿يَشۡرِي﴾ في سياقِ الآيةِ:

قـوَّةُ اجـتـمـاعِ مـعـنـيَـيِ الأضـداد؛ البيع والـشِّـراء في اللَّفظ الواحدِ

جاء التّعبير بـ﴿يَشۡرِي﴾، وهو من الأضداد[2]، يقال: شرى، إذا باع، وشرى: إذا اشترى، قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20] أي: باعُوه[3]، ويصحّ أن يقال لكلِّ واحدٍ من البائعِ والمشتري: بائعٌ ومُشْتَرٍ، وذلك بحسب ما يُتصوّر في الثّمن والمُثْمَنِ، فأيُّ السّلعتين تصوّرتها بصورة الثّمن فآخِذُه بائعٌ، والآخرُ مُشْتَرٍ، ولهذا الشّأن صارَ البائعُ والمشتري من الأسماءِ المشترَكة المعدودةِ في باب الأضداد[4].

وبَيعُ النّفس ههنا: بذلُها لأوامر الله وما يرضاه[5]، لأخذِ الأجر ورضوانِ الله تعالى، فهو من جهةٍ يبيع نفسَه، ومن جهةٍ أخرى يشتري الأجرَ والرِّضا، وهو أعظمُ فوزٍ يناله المؤمن في صفقة، والشّراء والبيع في مثل هذا الوضع كالرّمز والإشارة، وحقيقتهما وقفُ الإنسان نفسَه على مرضاة الله ﷻ، والتّحرّي في مصالح عباده[6].

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/204.
(2) الأضداد: اللّفظ الواحد الدّالّ على معنيَين مختلفين فأكثر، دلالةً على السّواء عند أهل تلك اللّغة، يُنظر: السّيوطيّ، المزهر: 1/369.
(3) الواحديّ، الوسيط: 1/312.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب الأصفهانيّ: 1/105.
(5) الواحديّ، المصدر السّابق: 1/312.
(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/431.

جمالُ الاستعارةِ التّبعيّةِ في لفظ: ﴿يَشْرِى﴾:

اسْتعمالُ لفظِ ﴿يَشْرِى﴾ في البَذْلِ مَجازٌ، حيث شبّه بذلَ النّفس بالبيع، على سبيل الاستعارة التّبعيّة، فالباذل كالبائع، واللّه المشتري، والثّمن مرضاة اللّه، وهو أغلى الأثمان، والمَعْنى: ومِنَ النّاسِ مَنْ يَبْذُلُ نَفْسَهُ لِلْهَلاكِ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ؛ أَيْ: هَلاكًا في نَصْرِ الدّينِ، وهذا أَعْلى دَرَجاتِ الإيمانِ، لِأَنَّ النَّفْسَ أَغْلى ما عِنْد الإنْسان[1]، والآية الكريمة عامة تتناول كلَّ من أطاع اللّه تعالى، وبذل نفسه في سبيل إعلاء كلمته، ويدخل في ذلك من نزلت فيهم الآية من باب أولى؛ فقد أورد المفسّرون رواياتٍ متعدّدةً في سبب نزول هذه الآية منها أنّها نزلت في صهيب بن سنان الرّومي، وغيرِه من الصّحابة [2] رضي الله عنهم؛ إذِ العبرةُ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب كما هو مقرَّر لدى أهل العلم[3].

سرُّ التّعبيرِ بالمصدَرِ الميميّ ﴿مَرْضَاتِ﴾ دون المصدر (رضا):

تـوقُ المؤمـن إلى مرضَاةِ الله غايةُ المطلـبِ في هذه الحياة

﴿مَرْضَاتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، مصدرٌ ميميٌّ من رضي، بمعنى الرّضا، وجاء التّعبير بالمصدر الميميّ ﴿مَرْضَاتِ﴾، دون المصدر الأصليّ (رضا)، لما في المصدر الميميّ من معنًى زائد عن المصدر، وهو دلالته على الذّات والإشعارِ بنهايةِ الحدث بالإضافة لدلالته على الحدث كما هو في غالبِ المصادر؛ فعند التّأمّل يُلْحَظُ أنّ المصدر الميميّ، يتضمّن حدثًا كما تضمّنه غيره من المصادر الأصليّة للأفعال، بيد أنّه في الغالب يزيد علَيها في دلالته على الذّات إضافةً إلى دلالته على الحدثِ الّذي يشاركُهُ فيه غيرُه من المصادر، فكلمة ﴿مُنقَلَبٍ﴾ مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشّعراء: 227] لا تطابق (انقلاب)؛ فالانقلابُ حدثٌ مجرّد، والمنقلَب يحمل معه ذاتًا تنقلب، والمساق في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: 30] يختلف عن قولنا:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/273.

(2) الرّوايات التي أوردها الطّبريّ في تفسيره: 3/591 وما بعدها؛ وابن كثير في تفسيره: 1/564 - 565.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/594.

إلَيه السَّوق؛ فالمساقُ يحمل معه ذاتًا تُساق، بخلاف السّوق الّذي يدلّ على مجرّد الحدث وهو السَّوْق.

ومن ناحية أخرى عند التّعبير بالمصادر الميميّة دون غيرها من المصادر الأصليّة للأفعال، فإنّ المصادر الميميّة مشعرةٌ بالنّهاية لما تضمّنته من معانٍ، فعندما نقرأ قولَ الله ﷻ: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٦﴾ [الرّعد: 36] نجد أنّ ﴿مَتَابِ﴾ مشعرةٌ بنهاية الأَوْب، بخلاف (الإياب) الّذي يدلّ على مجرّد الرّجوع دون إشعارٍ بمنتهاه، ومثلُه المنقلَب والانقلاب، فإنّ المنقلَب يعني خاتمةَ الأمر وعاقبتَه، أمّا الانقلابُ فإنّه يعني مجرّد التّغيّر، يقول تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشّعراء: 227] أي: عاقبة أمرهم ونهايتهم[1]، وفي ﴿مَرْضَاتِ﴾ يدرك السّامعُ المعنى المصدريّ واقعًا قائمًا متحقّقًا في الوجود، لملاحظة الذّات مع الحدث، أمّا المصدرُ غيرُ الميميّ فيصوّر المعنى مجرّدًا، كما أنّ التّعبير بـ﴿مَرْضَاتِ﴾ يُشعر بإمكان الوصول إلى منتهى الرّضا، وعلى ذلك يكون معنى ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أنّهم يبيعون أنفسَهم طالبين طلبًا موثقًا رضا الله سبحانه حقيقةً واقعةً مؤكدةً، ويتصوّرون رضاه سبحانه حقيقةً قائمةً قد حلّت بهم، فيشتدّ طلبُهم، وافتداؤهم للحقّ بأموالهم وأنفسهم كما أنّ نهايةَ الرّضا تتحقّق للشّهداء في جوار الله تعالى، كما أخبر النَّبِيُّ ﷺ عن ربّه تبارك وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَقولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ والخَيْرُ في يَدَيْكَ، فَيَقولُ: هَلْ رَضيتُمْ؟ فَيَقولونَ: وما لَنا لا نَرْضى يا رَبِّ، وقَدْ أَعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقولُ: أَلا أُعْطيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقولونَ: يا رَبِّ، وأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْواني فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[2].

إظهارُ ما حقُّه الإضمار

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

عُدل عن الضّمير في قَوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ إلى وضع اسم الجلالةِ فلم يقل: وهو رؤوفٌ بالعبادِ؛ لإدخالِ المهابَةِ وتربيَتِها في قلب السّامع، ولبناءِ الصِّفةِ على اسم الجلالةِ، فيُعطيها مهابةً وجلالًا.

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية العربيّة، ص: 31-32.

(2) أخرجه البخاريّ، حديث رقم: (7518)، ومسلم، حديث رقم: (2829).

جاء توكيدُ الخبر: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ باسميّة الجملة من قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ من باعَ نفسَه لله تعالى فحقيقٌ بأشدِّ أنواعِ الرَّحمة، وحريٌّ أن يكونَ في عباد الله المقبولين، وصفةُ ﴿رَءُوفُۢ﴾ من صيغ المبالغة على وزن: فعول، بمعنى فاعل، أي: كثير الرّأفة وهي أشدّ الرّحمة، وتذييلُ الآية برؤوف؛ أي: رؤوف بالعباد الصّالحينَ الذينَ مِنْهُمْ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ، فالرَّأْفَةُ كِنايَةٌ عَنْ لازِمِها، وهو إيتاءُ الخَيْراتِ كالرَّحْمَةِ[1]، ونبّه بهذا إلى أنّ الإنسان في بيع نفسه منه تعالى يَدخل في ملك من هو أرأفُ به من نفسه، وأولى به من ذاته[2]، وجاء هذا الخَتم بالوَعْدِ المُبَشِّرِ لعباده الأخيار، بِحُسْنِ الثَّوابِ، وجَزيلِ المَآبِ، ودَلَّ عَلى ذَلِكَ بِالرَّأْفَةِ الّتي هِيَ سَبَبٌ لِذَلِكَ، فَصارَ ذَلِك كِنايَةً عَنْ إحْسانِ اللَّهِ إلَيهِمْ، لِأَنَّ رَأْفَتَهُ بِهِمْ تَسْتَدْعي جَميعَ أَنْواعِ الإحْسانِ، ولَوْ ذَكَرَ أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الإحْسانِ، لَمْ يُفِدْ ما أَفادَهُ لَفْظُ الرَّأْفَةِ، ولِذَلِكَ كانَتِ الكِنايَةُ أَبْلَغَ[3]، ومِنْ رَأْفَتِهِ أَنَّ النَّفْسَ والمالَ لَهُ، ثُمَّ إنَّهُ يَشْتَري مُلْكَهُ بِمُلْكِهِ فَضْلًا مِنْهُ ورحمة وإحسانًا[4]، "ومن رأفة الله بعباده أن جعل النّعيم الدّائم في الجنّة جزاءً على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أن تقبل توبة عبده المذنب، ومن رأفته أنّ نفس العباد وأموالهم ملكُه، ثمّ إنّه تعالى يشتري ملكَه بملكِه فضلا منه ورحمة وإحسانا"[5].

ذكـــرُ صـفـةِ الرأفةِ كنايةٌ عن الإحسانِ

الألف واللّام في العباد للاستغراق؛ لِأَنّ الله رؤوف بِجَميعِ عِبادِهِ وهُمْ مُتَفاوِتونَ فيها، أو تكون للْعَهْدِ، أَيْ: رؤوفٌ بِالعِبادِ الذينَ يَشْرون أنفُسَهُم ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ[6].

معـنـى الألـف واللّام في العبادِ إمَّا للاستغراقِ أو العهدِ

(1) المصدر السّابق.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/431.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/336.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/351.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/483.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/273.

العدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾:

اشتمالُ الآية على حُسن التَّقسيم البديع ممّا يُسمّى الاستيعابَ في علم البديعِ

وفي الآية عدولٌ؛ عدَل عن الإضمار (بهم) إلى الإظهارِ ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ وحَسَّنَ هذا العدولَ شَيْئَان:

أَحَدُهُما: أَنَّ لَفْظَ: العِباد، لَهُ في اسْتِعْمالِ القُرْآنِ تَشْريفٌ واخْتِصاصٌ، كَقَوْلِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الإسراء: 65]

والثّاني: مَجيءُ لفظة ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ فاصلة؛ لِأَنَّ قَبْلَهُ: ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾، ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ فَناسَبَ: ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾[1]، وهو سجعٌ متوازٍ، للاتّفاق في الوزن والتّقفية.

وفي هذه الآية، والتي قَبلها من عِلم البديع: حُسنُ التَّقسيم؛ وهو: أن يتعلّق بالكلام معنى له أقسامٌ متعدّدة، فيستوعبَها في الذّكر، ويأتي علَيها، ويسمّى الاستيعاب[2].

(1) أبو حيّان، المصدر السّابق: 2/337.
(2) العَلويّ، الطّراز: 3/59.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»